

# جمالية النسق التعبدي في الكون، أو موسيقى الكائنات من منظور النورسي: دراسة في الكليات<sup>١</sup>

إدريس التركاوي\*

## الملخص

للکائنات في تأملات النورسي وظيفة موسيقية جمالية في الكون، تتشکل من حركاتها المادية وتسيباحتها الروحية، في دلالة ازدواجية مركبة تأبى التفكك؛ ما يستفز التدبير في الإنسان، ويدفعه إلى إعادة قراءة الكون والكائنات؛ قراءة تراعى فيها الوحدة الكونية والقانون التعبدي المشترك الجامع بين طبيعة الشيء المادية ووظيفته التوحيدية المعنوية، وليس الاكتفاء بإحداهما.

الكلمات المفتاحية: النورسي، النسق التعبدي، الجمال، الموسيقى، الكليات.

## Aesthetic Worship Pattern in the Cosmos, or "Music of Creatures" from Nursi's Perspective: A Study of the Universals

### Abstract

Nursi's reflections show that creatures have an aesthetic musical function which is composed of their physical movement and spiritual glorification, which comes in inseparable compound duality. This function provokes human contemplation that requires rereading the natural cosmos and creatures in such a way that takes into account the cosmos unity and the common worship law which bring together both the physical nature of things and their moral monotheistic function.

**Keywords:** Sa'id Nursi, Worship patterns, Beauty, Music, Universals.

---

<sup>١</sup> الكليات بمعناها المصدرية لا بمعناها الاسمي، فليس المقصود كليات رسائل النور بوصفها علماً على الكتاب، وإنما بوصفها قواعد وكليات متناثرة في هذا الكتاب؛ لأن دراسة الكتاب تحتاج إلى سوق تعريف به، وبمجموع محتواه، وممؤلفه، وبأنواع الكليات الموجودة فيه... وهذا غير موجود في الدراسة، ولا بمقصود.

\* دكتوراه في أصول الفقه ومقاصد الشريعة من جامعة ابن زهر كلية الشريعة/ أكادير-المغرب سنة ٢٠١٦م، يعمل أستاذاً في السلك الثانوي التأهيلي في إحدى حواضر المغرب الأقصى البريد الإلكتروني:

driss\_tar@hotmail.com

تم تسلّم البحث بتاريخ ٢٩/٣/٢٠١٦م، وقيل للنشر بتاريخ ٢٨/١١/٢٠١٦م.

## مقدمة:

لو شئنا كشف حقيقة الإنسان لقلنا إنه مادة ونور، أو نفس وروح. وحيث قُدِّرَ أن تتشكَّل طبيعة هذا الإنسان من النوعين معاً كان أصل الخير والشر راجعاً إليه من نفس هذه الطبيعة المضاعفة المزدوجة: النفس رمز الشر والتمرد، والروح رمز الخير والجمال. وما بينهما طفق الإنسان منذ القدم يرسم بأفعاله لوحات المكابدة وتجليات الحضارة وال عمران؛ تخلية للنفس من الشر، وتخلية لها بالخير. فلا جرم كان فعل النهوض الحضاري وتأسيس مقاصد المجتمع والأمة لازماً لإصلاح جسم النفس أولاً؛ فالنفس شجرة، والمجتمع أو الأمة ثمرة، وهل كانت الثمرة إلا بالشجرة؟

وقد كان نور القرآن هو ماء الحياة في هذه الشجرة، ومناخها الجميل الذي يعيد لها الحياة المتوازنة، كلما ذبلت أوراقها، وانخت أغصانها مُؤذِنَةً بالأفول واليبوسة. إنَّ إشارات القرآن أطياف غيبية، وخيوط نورانية تخرق بنا أعماق الزمان والمكان حيث تنسج النفس، وتأخذنا إلى حيث يرتع الجلال والجمال بين آفاق الروح وأصدائها الغيبية. ولكن من دون أن تُنسبنا واقع أنفسنا الابتلائي، بل العملية مراوغة بين صعود للارتشاف والتزود وهبوط للمكابدة والتعبد.

إنَّ الدخول في فضاءات القرآن معناه استشراف تلك الأصداء، واستمطار أندائها الشفيفة اللامعة المُحمَّلة ببرد عفو الله ورحمته؛ لإطفاء نار الشهوات المفرطة، وإخماد جمرها في عالم النفس، وتوجيه متعها ومستلذاتها لخدمة النسق التعبدي الكوني؛ ما يجعل الإنسان أهلاً لميلادٍ جديد بعقلٍ جديد وقلبٍ جديد، فيقدح الزناد الأول لوهج الحضارة وتوير العمران. وهل موقد النار والنور سوى قدح الشرارة الأولى؟

بهذا المعنى، فقد غدا الكون لازماً ضرورياً لنفس الإنسان؛ لأنَّه - بكائناته وطيباته - مرتعها، فأبى اهتمام به هو اهتمام بها، وأبى إهمال له سيؤدي حتماً إلى إهمالها.

وتبعاً لهذه العلاقة العضوية الضرورية، لم يعد الكون في منظور النورسي طبيعة جامدة ومصنوعاتٍ صُماً، وإنما شريعة فطرية يلزم ضرورة أن تكون جنباً إلى جنب مع الكلام

الإلهي؛ إذ كلاهما مُطَلَق، وهل القرآن إلا معادل موضوعي للكون، وفهرسة بيانية لجواهر الكائنات وأعراضها؟

النفس والكون والوحي؛ كلها كانت أثنافي بناء الحضارة في منظومة النورسي الإصلاحية، وهي مجالاتها في الوقت نفسه. وحيث كانت نظرتة عميقة عمق كل نظرة مُجدِّ ديني إلى العالم، كانت نتائج الحراك الإصلاحي بين هذه الأثنافي الثلاثة أعمق من أن تُخندَق في زاوية من العلوم، أو تُؤطَّر ضمن إطار متداول فيها؛ فهي منظومة مُطلَقة عن الاسم، مُفَعمة بالنور، كإطلاقية قائدها (القرآن الكريم)، ونورانية رسائله، فكانت منه وإليه. فلا عجب أن خطفت -حتى في لقبها- صفة منه (كليات رسائل النور)، ترميزاً إلى بُعدها الكلي الذي يشع بالنور. وشأن النور اكتساح غيابات الظلام، وتجليه سحبه المتراكمة أئى كانت، ومتى كانت. وهل من قادر على التحدي سوى كلمات الله المُحمَّلة بنور الماوراء؟

تأسيساً على ذلك كله، انطلق عملاق الأناضول في سياحة قلبية كونية للتفاعل مع الكائنات، واستقراء وظائفها؛ قصد إنشاء مُدوَّنة من الإبداع الجمالي والإصلاح العلمي والحضاري بصورة لم تكن معهودة عند من كان قبله، ولا خطَّتها أيماهم.

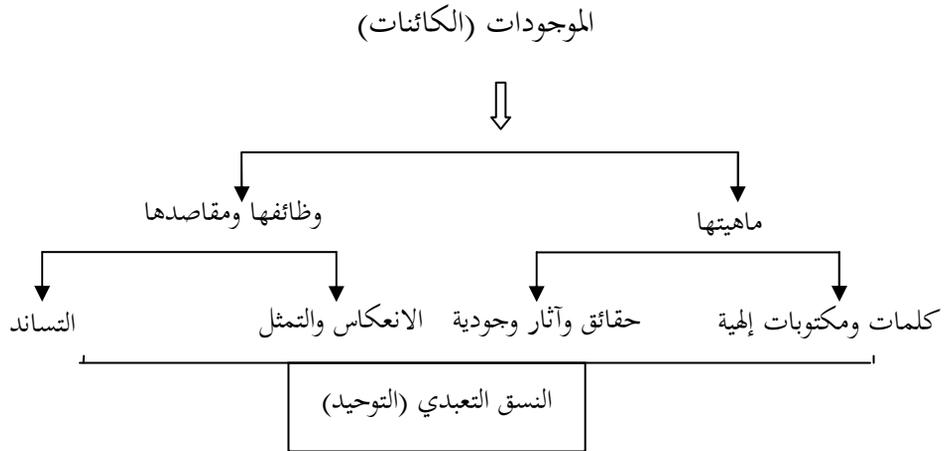
نحاول في هذه الجولة الكشف عن أسرار علاقة النورسي النفسية بالكون، والوقوف مع منطقهِ الوجداني في ارتباطه بالكائنات، بوصفها مخلوقات تتعبد بالطبع والوظيفة، وليس فقط مصنوعات مادية، أو أشياء جامدة. ولقد فاض من نسقها التكويني التعبدي مشاهد جمالية ولوحات فنية، كان لصددها في وجدان بديع الزمان انعكاس تصويتي في صورة ترسيمات وألوان وإيقاعات وحركات... فكانت (موسيقى الكائنات).

فما دلالة موسيقى الكائنات عند بديع الزمان؟ وما وجه ارتباطها بمنظومة الجمال عنده؟ وكيف اتخذها مسلكاً لرصد بعض القيم الإنسانية والكونية المشتركة في الخلق، وكذا دحض قوانين الطبيعة الجامدة كما في الفلسفة المادية؟

## أولاً: مشاهد ترتب الجمال، وتكوين أصل النسق التعبدي

يقول النورسي في معرض حديثه عن مبادئ تكوين الكائنات والأنفس: "إنَّ الموجودات آثار قدرته، ومكتوبات قدره، ومرايا أسمائه، ومثُلات أنواره."<sup>٢</sup>

تُعَدُّ هذه القاعدة التعريفية بالكائنات - في الرسائل كلها - أهم كلية مختصرة تنسيقية بين طبيعة الكون ووظيفته التعبدي، أو مقاصده الوجودية. ويمكن تفكيك عناصرها على النحو الآتي:



### ١. مشهد تشخيص الكلمات:

تبدو حقيقة الأشياء عند النورسي كلمات ومكتوبات في علم الله ومشيعته التكوينية، ثم حين يقضي بها بموازن مُقدَّرة وأقضية محسوبة تصير حقائق خارجية مادية. فالله "زين السماوات بكلمات الشمس والأقمار والنجوم... وأنطق جو السماء بكلمات الرعود والبرق وقطرات الأمطار،"<sup>٣</sup> "وجعل كرة الأرض تتكلم بكلمات بما بث فيها من الحيوانات والنباتات التي هي كلمات."<sup>٤</sup> ولا يخرج الإنسان في منطق التكوين الإلهي عن

<sup>٢</sup> النورسي، سعيد. اللمعات، ضمن: كليات رسائل النور، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٤٨٨.

<sup>٣</sup> النورسي، سعيد. الكلمات، ضمن: كليات رسائل النور، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٨٠٢.

<sup>٤</sup> النورسي، الكلمات، مرجع سابق، ص٨٠٢.

النسق. "حسبي من الحياة ووظيفتها كوني ككلمة مكتوبة بقلم القدرة، ومفهومة دالة على أسماء القدير المطلق."<sup>٥</sup>

فالكلمات في بُعدها القرآني أسماء محفوظة، ثم تتشخص وتتكون في الوجود في صورة ابتلاءات أو أجسام، على وزن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٢٤)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَةٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١)؛ أي كلمات تكوينية مُتمثلة في اختبارات خارجية، أو كائنات وجودية مخلوقة؛<sup>٦</sup> لأن كلمات الله في نهاية المطاف "نوعان؛ كلماته الدينية المُتضمنة شرعه ودينه كالقرآن. وكلماته الكونية التي بها كون الكائنات."<sup>٧</sup> والمقصود بالأصالة عند النورسي هذه الثانية؛ أي التكوينية، وليس التشريعية الخاصة، وسبب ذلك من مجموع نصوصه فيما بعد بصورة أوضح.

وبهذين البُعدين (أي التكوين، والتمثل) راح النورسي يرسم صورة تعبديّة نسقية للكون والكائنات، بمن في ذلك الإنسان، حتى يسلس له النقد والتقويم لقوانين المادة والغريزة، ويخلع على الأشياء وظيفتها التوحيدية الكونية، بمقتضى القانون التكويني المشترك، الراجع إلى مبدأ كتابة الكلمات، وتجلي الأسماء والصفات.

## ٢. مشهد تجلي الأسماء والصفات:

يُعدُّ مشهد الأسماء والصفات في تكوين المخلوقات وفلسفة القضاء والقدر أحد أعظم المشاهد الإلهية في الكون. يقول ابن القيم في ذلك: "وهو من أجل المشاهد (...)

<sup>٥</sup> النورسي، سعيد. الشعاعات، ضمن: كليات رسائل النور، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٩٩.

<sup>٦</sup> ينبغي التفطن إلى أنّ لفظ "التمثل" ليس بمعناه المسيحي الذي يُقرَّر تجسّد القدم في المُحدَث، فيصير منه؛ فهذا لا شك كفر وشرك، وإنما تجسّد وتمثّل للكلمات؛ أي تشخيصها، وتكوينها، وتحققها في الخارج في مخلوقات مُحدّثة فانية. وقد أورد القرآن المعنيين معاً، في قوله تعالى: ﴿إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لَمَّا نَجَّىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). وقد أورد القرآن المعنيين معاً، في قوله تعالى: ﴿إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لَمَّا نَجَّىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). وقد أورد القرآن المعنيين معاً، في قوله تعالى: ﴿إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لَمَّا نَجَّىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). وقد أورد القرآن المعنيين معاً، في قوله تعالى: ﴿إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لَمَّا نَجَّىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤).

<sup>٧</sup> ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم. درة تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٧، ص٢٦٦.

والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلُّق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلا، وارتباطه بها، وإن كان العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها.<sup>٨</sup>

فبمقتضى هذا المشهد يشترك الإنسان مع الكون، ويتساوى الحقيق مع العظيم في الكَمِّ والمقدار والهيئة؛ وذلك أنَّ الأسماء والصفات وإن كانت تقضي بوجود التنوع والتكاثر والتفاوت؛ "لأن الأسماء في الكون متداخل بعضها في بعض كالدوائر المتداخلة، وألوان الضوء السبعة،"<sup>٩</sup> فإن كلمات الله المكتوبة بقلم القدرة توجب التساوي في المرتبة بين هذه الكائنات بالنسبة إليها؛ إذ "لا مراتب في تلك القدرة، فتساوى بالنسبة إليها الذرات والنجوم والقليل والكثير."<sup>١٠</sup> وذلك حتى يكون الاهتمام بالذرة بالنسبة إلى القدرة كالاتتمام بالجرة في الإعجاز.

ولا شكَّ في أن هذا التباين في الماهيات والتساوي في الكلمات مع اختلاف الاعتبار هو الذي أضفى على الكائنات طابع التساند والانتظام. "كل منها يسند الآخر ويمده، كل منها يكمل أثر الآخر ويزينه."<sup>١١</sup> فتباين حقائقها وتنوعها يُلَوِّحها بألوان متنوعة في طبائعها، بيد أن قدرة الله ومشيبته وحاكميته المتفردة تلح عليها التساند والانسجام والتعبد والخضوع الاضطراري؛ استجلاءً لحقيقة قانون التوحيد فيها، وهو نسقها التعبدي، ومحورها الذي تدور عليه. فالتوحيد مقصد غائي بالنسبة إلى تباينها وتساندها وتعاونها، وهذه بالنسبة إليه عناصر ومظاهر تحمل جوهره وروحه.

بهذا المعنى فإنها صارت مرايا تعكس تجليات هذه الأسماء، وتحكي نوعاً من جمالها، ولكن من دون أن تتجاوز لباسها الذي ألبست لها القدرة، وفصلته قوانين القضاء والقدر، حتى كأنَّ لكل كائن لباسه الخاص الذي يعكس بألوانه وهيئاته شعاعات الأسماء ولمعات الصفات. "فقد أنشأ الله كل شيء - جزئيه وكلييه، صغيره وكبيره - بمثابة موديل يُلبسُه

<sup>٨</sup> ابن قيِّم الجوزية، محمد بن أبي بكر. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم

بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص٤١٨.

<sup>٩</sup> النورسي، سعيد. المكتوبات، ضمن: كليات رسائل النور، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٤٢٩.

<sup>١٠</sup> النورسي، اللمعات، مرجع سابق، ص٤٨٤.

<sup>١١</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص٤٢٩.

مئات منسوجات صنائعه المنقّشة بنقوش مُتجدّدة بمئات الأشكال والأنماط، مُظهِراً بما تجليات أسمائه الحسنی ومعجزات قدرته.<sup>١٢</sup>

### ٣. مشهد التصوير الفني:

إذا ثبت أن ماهية الكائنات وتمثّلاتها هي تجليات الأسماء، وثبت ضرورة أن يترتب على هذا التجلي تنوع وتباين في الماهيات والطبائع؛ ظهر أن مدرك الجمال في هذه الكائنات راجع إلى طبيعة هذا التنوع والتباين. فعناصر الصورة الفنية المتمثلة في الحركة والصوت والصورة والإيقاع<sup>١٣</sup> - عند النورسي - هي مادة المشاهد في شاشة الكون، وهي أعراض متنوعة، وكيفيات متباينة تعرض للمخلوقات، وتُشكّل مشاهد من التصوير الفني يشبه أن يكون مثل مشاهد السينما المتحركة، أو مقاطع المعزوفات والأنغام المتآلفة. غير أن هذا كله إنما هو في ذاته انعكاس لجمال مشهد الأسماء والصفات القاضية بالتنوع والتلون.

وعلى هذا، فإن الأمر دائر بين مشهد الأسماء والصفات ومشهد التصوير الفني الجمالي. فالأول وجودي علمي، والثاني ذوقي إحساسي. وكل ما في الكون لا يخرج عن طبيعة هذين المشهدين. يقول النورسي مُستشعراً تأثير الأسماء والصفات ودفعها الكون لمحاكاة نقوشها ومظاهرها: "والأسماء بحد ذاتها لا بُدَّ لها من الظهور، فتستدعي إظهار نقوشها، وتقتضي مشاهدة تجليات جمالها في مرايا نقوشها وإشهادها."<sup>١٤</sup>

فهي أشبه ما تكون بالمرآة، والكون كله مجال حركتها ومظهرها. يقول في ذلك: "الكرة الأرضية أخذت بهذه الحركة طور ماكيننة السينما التي تُبَيِّن المشاهد وتعرضها،

<sup>١٢</sup> المرجع السابق، ص ٣٠١.

<sup>١٣</sup> على أساس أن مصطلح "المشهد" يدل على وجود هذه الأركان عند نُظَار التصوير الفني. يقول سيد قطب: "والذي استعرضته هنا هو ما اصطلاحنا على تسميته "مشاهد"، وهو الذي تتوافر فيه الصورة والحركة والإيقاع". انظر:

- قطب، سيد. مشاهد القيامة في القرآن، القاهرة: دار الشروق، ط ١٦، ٢٠٠٦م، ص ١٠.

<sup>١٤</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص ١٠٩.

فحَرَكَتْ ما في السماوات من نجوم، وبدأت تسوقها سوق الجيش، عارضةً مناظر جذابة ومشاهد لطيفة.<sup>١٥</sup>

فالحركة في النص توحى بوجود إيقاع وصوت، ومنه تبدأ جذور الموسيقى في طبائع الكائنات ووظائفها؛ امتثالاً لموجبات القدرة الإلهية والكلمات ونقوش الأسماء والصفات.

#### ٤. الجمال والجلال منبع التسييح وأصل النسق التعبدي:

الجلال والجمال صفتان ترشح بهما كليات الوجود وقوانينه الكونية، فلهما من الشمول والاستغراق لوظائف المخلوقات وأفعالها وحركاتها، ثم من الاستيعاب والاحتضان لسائر الأسماء والصفات، ما يجعلهما توصفان في منظومة الصفات بكليتي الصفات والأسماء. ولهذا نجد القرآن ينصبهما علمين على نظامي (الربوبية) و(الألوهية) في تدبير الكون والكائنات، على اعتبار أنَّ النظام الأول دال على الحاكمية والكبرياء، وقوام الثاني على الرحمة والرعاية. يقول النورسي في تفسير صدر سورة الفاتحة: "إنَّ لفظ (رب العالمين) كما يتجلى منه الجلال بسلسلته، كذلك يتراءى الجمال بسلسلته من (الرحمن الرحيم). إذ الجلال والجمال أصلان تسلسل منهما -بتجليهما في كل عالم- فروغٌ: كالأمر والنهي، والثواب والعذاب، والترغيب والترهيب، والتسييح والتحميد، والخوف والرجاء إلى آخره...."<sup>١٦</sup>

فكل عناصر التكليف الشرعي للإنسان راجعة إليهما مثلما رأيت، وحيث كانت "الكائنات قد ارتبطت بنظام علوي دقيق، واستمسكت بروابط عجيبة."<sup>١٧</sup> وتلك حقيقة النسق التعبدي فيها؛ إذ كان لا بُدَّ أن ترجع لزوماً طبائعها ووظائفها إلى تينك الصفتين الكليتين؛ لأنَّهما مادة النسق التعبدي. ولهذا "مَن تحرك بمسلك في الهيئة الاجتماعية يلزمه أن لا يخالف حركة الجريان العمومي."<sup>١٨</sup> أي حركة النسق التعبدي المثبوتة من الجمال

<sup>١٥</sup> المرجع السابق، ص ٢٠.

<sup>١٦</sup> النورسي، سعيد. إشارات الإعجاز، ضمن: كليات رسائل النور، القاهرة: سوزلر للنشر، ط ٤، ٢٠٠٥م، ص ٢٥.

<sup>١٧</sup> المرجع السابق، ص ١٨٣.

<sup>١٨</sup> المرجع السابق، ص ١٧٠.

والجلال. وهذه نتيجة مُسلم بها في سُنن الكون، وفي منطق التكوين الإلهي للمخلوقات عامةً.

وعلى كل حال، فإذا ثبت أنَّ الجمال والجلال هما مادة النسق التوحيدي التعبدي ووجب أن تكون كل حركة في الكون مُخضعة رقيبتها -طوعاً أو كرهاً- لهذا النسق. وهذا اللزوم المنطقي الضروري في الأشياء هو الذي بثَّ في مناكب الوجود تناغماً في حركة الأجرام، وانسجاماً في وظائفها، فتولدت منها معزوفات وأناشيد، ماهيتها التسبيح، ووظيفتها الخدمة للإنسان؛ سيدها ومقصدها الأصلي من وجودها. إنَّه تناغم بين العالم الأكبر (الكون) والعالم الأصغر (الإنسان). يقول بديع الزمان في ذلك: "إنَّ القدرة الإلهية تُظهر عظمة الربوبية في العالم الأكبر، أمَّا الرحمة الربانية فإنَّها تنظم النعم في الإنسان - العالم الأصغر- (...). إنَّ قدرة الصانع -من حيث الكبرياء والجلال- أوجدت العالم كله كأنَّه قصر عظيم ومزرعة جميلة، مثلما أسبغت رحمته -من حيث الجمال- صنوفَ نعمه على كل كائن حي، فجمَّلت الكائنات طُراً بالنعم وزينتها باللطف والكرم، دافعةً هذه الألسنة الصغيرة الناطقة بجمال الرحمة أن تقابل تلك الألسنة العظيمة الناطقة بجلال العظمة. أي إنَّ الأجرام الكبيرة كالشمس والعرش حينما تنطق بلسان العظمة: "يا جليل، يا كبير، يا عظيم"؛ تقابلها ألسنة الرحمة في البعوض والسمك والحيوانات الصغيرة: "يا جميل، يا رحيم، يا كريم"؛ مُكوِّنةً بذلك نغمات منسجمة في موسيقى كبرى.<sup>١٩</sup>

وإذا تباينت تجليات هاتين الصفتين في الوجود فليس ذلك بضارٍّ لنسقهما وحاكمتيهما. وقد لفت النورسي انتباه المتأمل إلى ذلك بقوله: "أنصت إلى السماء كيف تنادي: يا جليل ذو الجمال! وأعر سمعك إلى الأرض كيف تُردِّد: يا جميل ذو الجلال!؛"<sup>٢٠</sup> لأنَّ طبيعة المخلوقات إنَّما وُضعت على هذه الازدواجية في الكون انسجاماً مع مقتضيات القدرة الربانية الجلالية والرحمة الإلهية الجمالية. فحيثما سبقت إحدهما إلى عقل الإنسان وقلبه كانت الأخرى تابعة لها لزوماً، مُضمرةً في كيانها؛ لأنَّهما كذلك في الوجود، مثلما تنبض به مشاهد الأرض الجميلة المحفوفة بالجلال، ويعكس الجلال الظاهر

<sup>١٩</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

<sup>٢٠</sup> النورسي، الكلمات، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

في مخلوقات السماء الرهيبة مظاهر الجمال. والمقصود أنّ الجلال والجمال هما مادة التسييح ومحرك الموسيقى والإنشاد في طبائع الكائنات ووظائفها. فما أسس ذلك كله؟ وما تجلياته؟

## ثانياً: موسيقى الكائنات: الحفريات الفلسفية وتركيب المفهوم

### ١. الجذور المعرفية الفلسفية:

يرجع نسج الألحان وأداؤها في صناعة الموسيقى إلى مقولة الفعل والانفعال،<sup>٢١</sup> وهي من المقولات العشر الكلية عند نُظَّار العقل. فالنفس مجبولة على التغيي والسماع بالطبع. وفي جوف الروح موضع لانفعال الكائن بالصوت والترنم. وقد حدّد نُظَّار الموسيقى أنواع السماع والترنم في ثلاثة: "أحدها الألحان المُلِدَّة، والثاني: الألحان الانفعالية، والثالث: الألحان المُخَيِّلَة".<sup>٢٢</sup> ثم ترتبت مقاصدها الغائية على هذا الترتيب؛ "فالمُلدَّة منها تستعمل للراحات ولكمالها، والانفعالية تستعمل حيث يقصد بها حدوث الأفعال الكائنة عن انفعال أو حصول الأخلاق التابعة لانفعال ما، والمُخَيِّلات تستعمل حيث تستعمل الأقاويل الشعرية وأنحاء من الخطيبية، ومنافعها تابعة لمنافع الأقاويل الشعرية".<sup>٢٣</sup>

والمُلاحَظ على هذا النص التصنيفي للفارابي أنّ اللذات وغايات النفس من الموسيقى؛ إمّا لذة نفس لا غاية لها بعيدة، وإمّا هدفها تحصيل اللذة والاستجمام، وإمّا لذة انفعال لإدراك مقصد علمي غائي أو التخلُّق بخلق رفيع، وإمّا لذة انفعال لتفهّم معنى لفظي نظمي أو نثري.

وأكمل هذه المقاصد القسم الثاني منها؛ لارتباطه بالروح، والتزازه بغايات شريفة خلقية وإيمانية. فلذلك راح النورسي في تمسّيك به للخروج من الطبيعة العبثية واللّهو الزائد

<sup>٢١</sup> باعتبار غايتها ومقصدتها الطبيعي، وإلّا فإنّها تنتمي إلى مقولة الكمّ بوصفها صناعة؛ لأنّها ترتبط حينئذٍ بعلم الرياضيات والحساب. ونظرة النورسي إليها بحسب الاعتبار الأول، لا بالاعتبار الثاني.

<sup>٢٢</sup> الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد. الموسيقى الكبير، تحقيق: غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة: دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٥م، ص٦٦.

<sup>٢٣</sup> المرجع السابق، ص٦٧.

للموسيقى والإنشاد، وتلميحاً منه إلى الصبغة الطبيعية الفطرية للأصوات والحركات والإيقاعات الكونية حيث تتناغم مع الشعور، وتتساوق مع المواجيد.

وعلى هذا، فإنَّ حركة الكائنات إنما هي تصويبات وترانيم ساذجة فطرية عرّضت للحيوان في فعله وصوته ولونه... وسائر أعراضه الطبيعية؛ بقصد إثارة شيء تعبدي في الإنسان، وليس فقط بقصد جلب لذة نفسية، أو طلب معونة على فهم كلام، أو التأثّر بمضمونه.

إنَّ استعداد القلب لقراءة حركة الكائنات الفعلية والصوتية جعل النورسي موهبة متدفقة فاقت البُعد الصناعي لفن الموسيقى وتجاوزته، تماماً كما كان شأنه حيث لم يكن دارياً بقواعد القريض وصناعة الشعر من حيث هي صناعة، لكنَّ تأوهات المتدفقة من مشكاة اللطافة الذوقية في جوف الفطرة الساذجة الأمية للغلام منذ نعومة أظفاره؛ جعلته يقفز على الصناعة في ريعان شبابه، وينسج ألواحاً من المعاني المسبوكة ربّما جعلته أهلاً ليكون أديباً من طراز فطري أصيل.<sup>٢٤</sup>

وهذه الأغراض والمقاصد الثلاثة هي التي دفعت الإنسان إلى إنشاء صناعة الموسيقى عموماً. ومع تباين هذه الأحوال والمقاصد يتباين حتماً مورد الحكم الشرعي فيها. يقول النورسي مُميّزاً بين لذة مجردة ولذة غائية: "فبناءً على هذا السرّ أحلَّ الشرع بعض هذه الأصوات، وهو ما هيّج عشقاً علوياً وحنناً عشقياً. وحرّم بعضها، وهو ما أنتج اشتهاً نفسياً وحنناً يُتميّباً، وما لم يُركَّ الشرع فميّزه بتأثيره في روحك ووجدانك."<sup>٢٥</sup>

والدافع في الأصوات هو رقة الطبع وتفاعله مع حركة الكون، كأنها فارت من بوح الروح اضطراراً. ولعل هذا هو السبب الذي دفع "القدماء إلى استنباط اسم الموسيقى الكونية؛ لاعتقادهم بأنَّ النجوم والكواكب في السماء تغني."<sup>٢٦</sup> لأن هاته الكواكب والنجوم منجذبة بالشوق والإرادة، مطبوعة على الانفعال.

<sup>٢٤</sup> للاستزادة، انظر:

- الأمراني، حسن. النورسي أديب الإنسانية، القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠٠٣ م.

<sup>٢٥</sup> النورسي، إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص ٧٨.

<sup>٢٦</sup> كانيغهام، جولي آن. "موسيقى الكائنات"، مجلة حراء، القاهرة: دار النيل، عدد ٢٣، ٢٠١١ م، ص ١٩.

ومتى سمّيناها (موسيقى) كان كتسمية الزهد (تصوفاً) عند نُظَّار التصوف، وكتسمية التصويت بالقرآن (تلحيناً وتغنياً)، وكتسمية نظم المعاني الفطرية في قوالب لفظية (شعراً)... وفي مثل هذا يقال: "لا مشاحة في الاصطلاح"؛ لأنَّها معانٍ وجدت موضعها في النفس والروح، فلمَّا خرجت إلى الخارج راحت في أمسِّ الحاجة إلى اصطلاح يُفِرِّز حقيقتها، ويفصل طبيعتها، ويُقرِّبها إلى التداول. ومن ثمَّ يمكن الحديث عن أول خطوة في تحقيق علميتها، ورصد مجال التجويز والمنع الشرعيين فيها، بناءً على تنوُّع مقاصدها وغاياتها.

ولقد كان للُبُّعد الديني وذريعة تحصين قواعد الشريعة دورهما في منع التسمية قديماً. والآن، بعدما زال هذا المحذور لانفصال العلوم وتصنيفها، فقد بات كثير من أهل الذوق والنظر يعرجون على دفائن جمالية في اللفظ والمعنى والوجود، هي ألصق بالجمال، وأدعى لنفث حقائق موسيقية في النفس، مثل: سيد قطب، ومصطفى صادق الرافعي، وعباس محمود العقاد، وعبد الله الطيب.

والنورسي لم يكن بدعاً منهم، وإنَّما كان همه هو توحيد الأنظار المختلفة في المصطلحات الصناعية للفن برَدِّها إلى معينها في كليات القرآن، وإضفاء طابع العقلانية المشتركة عليها، والتوفيق بين الصناعي المكتسب (الموسيقى، والترنم) والفطري في الطبع (التسبيح)؛ لأنَّهما متلازمان كما قرَّرَ النُّظَّار بقولهم: "ما من شيء توصَّل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها."<sup>٢٧</sup>

فمادة الموسيقى وموضوعها (النغم) طبيعيان، وصورتها الصناعية التي تُعنى برصد القواعد والمصطلحات رياضية مرتبطة بقواعد الحساب العارض لها.<sup>٢٨</sup> ولمَّا كانت الطبيعة هي مدار تحرك الكائنات وتجمُّعها كان اهتمام النورسي بها من هذه الجهة؛ أي من جهة كونها طبعاً في الخليقة. فيشبه أن يكون نزوعه هذا المنزع تحديداً إنَّما هو لرصد خيوط النور التي تربط الكائنات بخالقها وصانعها، وتشدها به قبل أن تُفَرِّقها الصناعة العلمية،

<sup>٢٧</sup> الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، بيروت: دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٥م، د.ت، ص ٧٤٢.  
<sup>٢٨</sup> ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. كتاب البرهان، ضمن: الشفا، تحقيق: أبو العلاء عفيفي، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٦م، ص ١٦٤-١٦٥.

حيث تتفرق العلوم، وتُصنّف مباحثها، وينكفى كل علم فيها على ذاته، من دون أن يكون خادماً للوحدة الكونية والنسق التعبدي الذي تُلوّح إليه إحدى أعظم الكليات التوحيدية المثبوتة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤).

ولهذا تراه في رسائله كلها يُمسكُ بهذه الكلية القرآنية المستوعبة لنفث أذواقه، والتنقيب عن أسرار القدرة الإلهية وصفاتها في صبغ الكون بألوان التسييح والتهليل الفطريين، دونما حاجة إلى قواعد الفن النظرية. ومن هذا المسلك يمكن الوقوف على طبيعة المفهوم عنده، وما يقصد به.

## ٢. تركيب المفهوم:

مرتع نظرية موسيقى الكائنات ومادتها عند بديع الزمان هي منظومة الجمال بمشهديه المزدوجين: الحسي الحركي (الألوان، الضوء، الطبيعة، السينما، الصوت، اللغة، الرسم، النقش...)، والمعنوي (مبدأ تجلي الأسماء والصفات، وتشخيص الكلمات).

فمفهومها معقد ينطوي على أسرار ومقاصد ودلالات، هي دوائر علمية وجمالية متداخلة، تتقاطع في مشترك دلالي واحد هو معنى الموسيقى فيها، وإن كانت تتفرد في حقيقتها بخصائص تُمثّل ماهيتها. وعلى هذا، فموسيقى الكائنات هي ترسانة الأصوات المادية والمعنوية التي تثيرها حركة الانفعال في الكائن إثر تلقيه الأوامر التكوينية الإلهية؛ قُصد إظهار وظائف النسق التعبدي المنوطة به.

وعند تفكيك هذا التعريف الكلي الذي نظمناه من منطوق النصوص النورية ومفهومها، نجدّه يحتضن عناصر ثلاثة متداخلة في تركيب المفهوم، بوصفه نظاماً معقداً يتداخل فيه الطبيعي مع الحسي، والشرعي مع الكوني. وهذه العناصر هي:

أ. حركة انفعال الكائن نتيجة تلقي الأمر التكويني (أو تجسيد الكلمات المكتوبة).

ب. مجموع الأصوات المادية والمعنوية.

ت. مقاصد تلك الأصوات ووظائفها (أو استجلاء مظاهر النسق التعبدي).

فالعصران الأوليان يُجَلِّيان طبيعة خلق الكائن، وماهيته، وما يعرض لها. والعنصر الثالث يوضح وظيفة خلق هذا الكائن، ومقاصد تكوينه. فمعهما معاً صدرت عناصر

الجمال الموسيقي. ويمكن استجلاء مظاهر العنصرين عن طريق التكشيف عن المعاني والأسرار لهذه الكليات الثلاث المُمثلة لحقيقة النظرية، وذلك كله فيما يأتي.

### ثالثاً: التجليات الموسيقية في ماهية الكائنات ووظائفها

#### ١. طبيعة الكائنات وماهيتها:

##### أ. حركة انفعال الكائن نتيجة تلقي الأمر التكويني:

يوجد في جوف الكائن وباطنه الشعوري نوىً معنوية هي آلات رصد الأمر الإلهي القاضي بالتكوين والإنشاء. يقول النورسي: "فالانجذاب والشوق والحاجة والميل، كلها نوىً لامتثال الأوامر التكوينية الربانية وبدورها من حيث ماهية الأشياء."<sup>٢٩</sup> والانجذاب، والشوق، والحاجة، والميل؛ كل ذلك دوافع طبيعية في الكائن عُجنت في مادته؛ قصداً للتجاوب مع الأمر والامتثال له، فنشأت - في ذوق المتدبر - أصوات وذبذبات تعبدية هي اهتزازات بتعبير النورسي، تُعدُّ صورة حقيقية لامتثال الأمر، فتبدأ أطوار الحلقة فيها، وتشكّل ماهيتها. يقول في حركات الذرات: "إنَّ حركات الذرات إنّما هي اهتزازات وحركات عبور الموجودات من جراء الكتابة الإلهية والاستنساخ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؛ أي من العلم إلى القدرة."<sup>٣٠</sup>

وهذه الاهتزازات هي منشأ التصويت في الأجسام عموماً.<sup>٣١</sup> غير أنّ النورسي يُصوّر وجود الكائن تصويراً محسوساً، ويجعل امتثاله حركاتٍ وإيقاعاتٍ ملموسةً يطرب لها في أثناء تلقيه الأمر كما يطرب السامع بسماعه الترانيم والمعزوفات.

والنورسي ما لبث يستمد من قواه الوجدانية وانبعائه الإيماني قوانينٍ أخرى، تسوق المخلوقات إلى القفز عن أجسامها المتباينة وأجرامها المتفاوتة، وإدراك سر الوحدة بينها، أو الدخول في نسق تعبدي ناظم، يلثمُ شعثها، ويوجّه الإنسان إلى إدراك حقيقتها الغيبية

<sup>٢٩</sup> النورسي، سعيد. صيقل الإسلام، ضمن: كليات رسائل النور، القاهرة: سوزلر للنشر، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٣٤٣.

<sup>٣٠</sup> المرجع السابق، ص٤٥.

<sup>٣١</sup> مطلوب، أحمد. بحوث بلاغية، بغداد: د.ن، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٤.

في الكلمات قبل أن تقدر في الكون أجساماً وهيئاتٍ وأشياء. يقول مُنبِّهاً على هذه القوانين في إشارات تفسيرية: "إنَّ نغمات (لا تقنطوا) وأصداءها تتجاوب من ست جهات: الضرورة، والانجذاب، والتمايل، والتجريب، والتجاوب، والتواتر. تتجمع تلك القطرات واللمعات في مصافحة وعناق، وتطوي ما بينها من المسافة، مُولِّدةً حوضاً من ماء يبعث على الحياة، وضياءً مُنوراً يَنيِّرُ العالم أجمع."<sup>٢٢</sup>

والحوض والضيء يخفيان تحتها تجليات التوحيد، أو الأحدية بحسب تعبيره في رسائله. أمَّا لفظا العناق والمصافحة فيرمزان إلى مقصد الأخوة والوحدة، ونبذ الاختلاف بين الكائنات أولاً، وهذا مقصد تكويني وجودي، وبين نوع الإنسان ثانياً، وهو مقصد تكليفي تشريعي. فالكون مبني في طبيعته على الأخوة والوحدة بين كائناته، فكيف يخالف البشر مقتضياتهم الفطرية الكونية، وينزعون إلى الصدام والحروب بله تخريبهم منظومة تلك النعم والكائنات بتشبيها واستغلالها بكل حساسة ولؤم؟

إنَّ قلم القدرة الذي كتب الكلمات ودفع المشيئة لتشخيصها في الأرض يوجب أن تكون هذه "الأرض بكاملها سفينة مُسَخَّرَةٌ ودابة مأمورة... سائرة سريعاً في فضاء الكون"<sup>٢٣</sup> تتلقى الأوامر بلهف وشوق وفرح. فلا جرم غرزت فيها هذه الدوافع - مثلما غرزت في كائنتها - بقصد الامتثال لذلك الأمر، وإظهار تجاوبها معه، بما تُنشئه من معزوفات وأناشيد وإيقاعات، تماماً كما تتجاوب الذرة معه في اهتزازاتها وحركات عبورها من الكمون إلى التجلي مثلما سبق.

### ب. مجموع الأصوات المادية والمعنوية:

يقصد بذلك أنَّ الصوت المُرتَّب على حركة انفعال الكائن إنما يكون ملموساً محسوساً يشترك في إدراكه الجميع، لكنَّه مُلَفَّعٌ بدثار التسبيح والذكر، وذلك مثل "ترنمات هبوب الريح، ونعرات رعد الغيم، ونغمات أمواج البحر، وصرخات دقذقة الحجر،

<sup>٢٢</sup> النورسي، صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

<sup>٢٣</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص ٢٠.

وهزَّجَات نزول المطر، وسَجَّعَات غناء الطير... كأنَّ الكائنات معزوفة موسيقية عظيمة.<sup>٣٤</sup>

فكل حركة ذاتية أو عرضية في الكون إنما هي تسييح وتمجيد لبارئها، واعتراف ضمني في ماهيتها بخالقيته وقدرته وعلمه. فالأشجار والنباتات مثلاً "قد عقدت بأجناسها وأصنافها مجلساً فخماً للتهليل والتوحيد، وشكَّلت حلقة مهيبه للذكر والشكر من خلال ثلاث حقائق كبرى كلية...:

بالألْسنة الفصيحة لأوراقها الموزونة.

وبالكلام الجزيل لأزهارها الجميلة.

وبالكلمات البليغة لأثمارها المنتظمة.<sup>٣٥</sup>

وهذه الدلالة المزدوجة للصوت في الكائنات، أقصد أصواتها المادية المدركة والمعنوية الرمزية الشعورية، لا تفترق منعزلةً عن بعضها بعضاً في منطق النورسي الإحساسي، وإنما في التصور الإسلامي عامة؛ فالنظام الروحي في الكائن مساوق للنظام المادي. وأصوات الطبيعي وإيقاعاته في الخارج هي انعكاس لذات التسييح والتمجيد في باطنه. فالماهية تتشكَّل من النظامين معاً، وتدفع الكائن إلى إنتاج وظائف ومقاصد تعبدية يُرى فيها اللونان معاً في لوحة نسقية متكاملة مندمجة، لا يجوز تفكيك محتوى اللونين فيها، وأيُّ محاولة لذلك تُعدُّ اختزال الكائن في شيء جامد، أو جعله خيلاً وصورةً وهميةً.

وكذلك كان الصراع الرمزي في الماضي بين الاشتراكية المادية والروحية المسيحية، في الفن والفلسفة كما في الاقتصاد والاجتماع... بل غداً صراعاً بين نظامين نسقيين في أغلب التصورات الفلسفية: المادة في مقابل الروح.

والإسلام في هذا الخصوص يُوجِّه المنطق الإنساني إلى إدراك أنَّ الحقائق الشرعية والكونية إنما هي "كينونات لا تقبل التجزئة"<sup>٣٦</sup> في الجمال والفن والفلسفة كما في

<sup>٣٤</sup> النورسي، إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص ٧٧.

<sup>٣٥</sup> النورسي، الشعاعات، مرجع سابق، ص ١٥٢.

التعبادات والمعاملات والأخلاق. فالكل منضود في عقد النسق التعبدي. وهو الذي ربط مثلاً "بين الوضوء والصلاة في وحدة تسمى (الصلاة الإسلامية)"،<sup>٣٧</sup> وجعل المال مع المواساة هو نفس الزكاة في الإسلام... وهكذا في كل شيء؛ أجسام الكائنات ومنظومة الحلال المنوطة بها من أكل وشرب واستمتاع؛ هو الذي يحرك في باطن المُكَلَّف وازعه المسمى الإيمان، فيُكُون حقيقة الإيمان الكبرى.

وكليات القرآن ما لبثت تُنبئه لهذا التساوق بين النظامين في صورة نسقية تعبديّة؛ فقولته تعالى في جمال الكائنات وطيباتها ونعمها: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢) هو دافع غائي إلى أمر آخر هو زينة الإيمان وجماله في نفس تركيب الآية مثلما ترى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢)؛ أي خلقت للمؤمنين في الدنيا بالأصالة، ولغيرهم بالتبع. ثم تصوير خالصة محضة للأولين في الآخرة بفضل الإيمان. وقد نبّهت عليه آية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ٧)؛ إذ الإيمان وتحبيبه وتزيينه هو الكلي المقصود بالأصالة، وإنما الكون كله -بما في ذلك جملة النعم- مسوق لخدمة هذا المقصد الجليل، فنصبت للتناول قصداً ابتلائياً كونياً مشتركاً، فصار تناولها والشكر عليها هو ذات حقيقة الإيمان في الإسلام. ولهذا حَرَّمَ الشارع الزهد في أصلها، وإن جَوَّزَه في المداومة عليها. وهنا نسوق نكتها اللطيفة في فقه الشريعة عند نُظَّار المقاصد؛ إذ يقول الإمام الشاطبي: "تناول المباح لا يصح أن يكون صاحبه محاسباً عليه بإطلاق، وإنما يحاسب على التقصير في الشكر عليه، إمّا في جهة تناوله واكتسابه، وإمّا في جهة الاستعانة به على التكليفات. فمن حاسب نفسه في ذلك وعمل على ما أمر به؛ فقد شكر نعم الله. وفي ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ (الأعراف: ٣٢)."<sup>٣٨</sup>

<sup>٣٦</sup> بيحوفيتش، علي عزت. الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد عدس، بيروت: مؤسسة العلم الحديث، ط ١، ١٩٧٤م، ص ٣٤.

<sup>٣٧</sup> المرجع السابق، ص ٣٣.

<sup>٣٨</sup> الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١م، ج ١، ص ٣٢.

فلا بُدَّ إذن من هذه النعم والآلاء الجمالية لتحقيق الشكر بما هو مقصد غائي. والشكر هنا هو شكر كوني بمعناه العام الذي يلزم كل إنسان من حيث هو إنسان، وليس شكراً خاصاً يؤديه المؤمن فقط. ولذلك قرنه بالتوحيد في نصٍ مشاكل، قائلاً: "والشكر هو صرف ما أنعم عليك في مرضاة المنعم، وهو راجع إلى الانصراف إليه بالكلية، ومعنى بالكلية أن يكون جارياً على مقتضى مرضاته بحسب الاستطاعة في كل حال، وهو معنى قوله ﷺ: حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً." <sup>٣٩</sup> إذ عدم الشرك هو التوحيد والإيمان.

والمقصود من الآية -المسوقة عند الشاطبي- أن تناول النعم بوصفها أشياء مادية والشكر عليها هو مجموع الإيمان، وأنَّ وحدة جملهما الخارجي والنفسي معاً تُمثِّل حقيقة الجمال في الإسلام.

على وزن هذا القانون المقاصدي الكوني الرفيع تنتزَل كل حركة في الكون، تُولَّد صوتاً ونغماتاً هو قبس من منظومة الجمال عموماً. فالأصوات المسموعة المادية كلها تسايح في ماهية الكائنات لا مجال للفصل، "فدونك إن شئت الاستماع إلى ما لا يجد من كلمات التسبيح والأذكار في الكون"، <sup>٤٠</sup> مثل "لسان الأزهار المبتسمة بنشوة اللطف... صوت أهازيج الأمطار المنسكبة منها، وجلجلة رعود السماء..." <sup>٤١</sup> "ترنمات الرياح، ورعدات الرعود، ونغمات الأمواج؛ تسيححات سامية... وهزجات الأطيوار... تهاليل رحمة وعناية..." <sup>٤٢</sup> "الطيور تنطق؛ تبث أناشيدها بمناقيرها الدقيقة حتى تُحوَّل الكائنات كلها إلى موسيقى رفيعة." <sup>٤٣</sup>

غير أنَّه يوجد جسم وروح، ولكلِّ حقيقته منفرداً، ويبقى للإسلام لمستته الإعجازية في التوفيق بينهما. وهذا هو السر العجيب فيه دون سائر الملل والنحل.

<sup>٣٩</sup> المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٤٤.

<sup>٤٠</sup> النورسي، الكلمات، مرجع سابق، ص ٨٠٣.

<sup>٤١</sup> المرجع السابق، ص ٨٠٤.

<sup>٤٢</sup> المرجع السابق، ص ٨٩٣.

<sup>٤٣</sup> المرجع السابق، ص ٨٩٤.

وعلى هذا، فإنَّ سرَّ إفلاس نظرة الفلسفة الغربية -مثل سليلتها اليونانية- إلى الكون، هو تشييء الكائنات، وتفضيل أوقاها وأضحهما في إشباع الغريزة على أصغرها وأضعفها، تماماً كالتفضيل بين شيءٍ وشيءٍ في الطبيعة؛ لأنَّ هذه "الطبيعة تتصور (القوانين المعنوية) التي تُشاهد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع... كأنَّها قوانين مادية وأشياء جامدة."<sup>٤٤</sup> في حين أنَّ روح التصور الإسلامي يرى في الكون اهتماماً متساوياً بمخلوقاته وتكوينها على وزن ذلك التساوي في الاهتمام. والدليل على ذلك خمسة قوانين تُمثِّل الروابط المعنوية بين هذه الكائنات وصبغها بصبغة النسق التعبدي الذي تخضع له الأجسام الكبيرة مثلما تخضع له الذرات والأشياء المتناهية في الصغر. يقول مُبيِّناً هذه القوانين: "لا مراتب في تلك القدرة، فتتساوى بالنسبة إليها الذرات والنجوم والقليل والكثير... بسر النورانية والشفافية والمقابلة والموازنة والانتظام."<sup>٤٥</sup>

إنَّ ماهية كل كائن -عند النورسي- إنما تحمل بالقوة هذه القوانين، وحيث وُجدت فعلاً توجد معها تجاوباً مع سائر شقيقتها، وإبذاناً بإنشاء حركة تعبدية واحدة في الكون، هي التي بثت في مواجيد النورسي الشفيفة موقعاً لترجيع صداها التعبدي، فكان "الكون كله موسيقى متناغمة الألحان لذكر عظيم. فامتزاج أصغر نغمة وأوطئها مع أعظم نغمة وأعلاها؛ ينتج لحناً لطيفاً مهيباً."<sup>٤٦</sup>

فلا عجب أن يشار إلى الذرة، وإن كانت مخلوقاً متناهياً في الصغر، غير أنَّ لها شرف تحريك المخلوقات بأمر إلهي، فتغدو كطرف إبرة مركزية في نسج الأسطوانات (المخلوقات) وحياتها، دافعةً إياها إلى الخضوع لخالقها عن طريق قابليتها لفعل تلك الإبرة فيها، حتى لو أبصرها أعظم كوكب عند الفلاسفة لدهش وانكمش. يقول في ذلك: "كل ذرة تُبَيِّن نفسها في صورة طرف إبرة لأذْرُع معنوية -لا حدَّ لها- لحاكِّ رباني، تدور الإبرة على أسطوانات -وهي المصنوعات الربانية- فتنطِّقُها بقصائد ثناءٍ ورحمة، وتنشدها أناشيد وتسيبجات إلهية."<sup>٤٧</sup>

<sup>٤٤</sup> النورسي، اللغات، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

<sup>٤٥</sup> المرجع السابق، ص ٤٨٤.

<sup>٤٦</sup> النورسي، الكلمات، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

<sup>٤٧</sup> المرجع السابق، ص ٦٦٥.

فالتسبيح والإنشاد قانونان رمزيان في وجدان النورسي يهفو إليهما دائماً؛ لتصوير حقيقة الامتثال التعبدي في الكائنات، ورصد مشاهد التصوير الفني القائم على الصوت والحركة والإيقاع وغير ذلك.

إنَّ تصوير ماهية الذرّة على أنّها طرف إبرة تمخر عُباب المنسوجات والمصنوعات، وما يستلزم ذلك من قابلية وانسجام وامتثال من هذه المصنوعات؛ إنّما يرسم في مخيلتنا لوحة جمالية متباينة الألوان، متناسقة الطُّرز، تُرى بالبصر، وتستمتع بها البصيرة. غير أنّ هذا كله في منطلق القرآن الكريم وكلمات الله التكوينية إنّما هو تسبيح وتحميد وتبجيل. فبهذا تصف كليات القرآن المخلوقات في طبائعها، وفي وظائفها أيضاً كما سيأتي. ولمّا كان النورسي فتىً قرآنيّاً لا يبارى فقد كان تشبثه بطبيعة المصطلحات والمسميات هنا بما هي نسخة أصيلة من طبيعة هذه المفاهيم والمسميات نفسها في الكليات القرآنية.

ومن هنا، كان لجوؤه إلى لفظ التسبيح ليسلس له لفظه المرادف في الصناعة، وهو الموسيقى والإنشاد، فيصيراً أشبه بالمتنازعين على المعمول الواحد؛ من الناس من يُرَجِّح هذا لقربه من المعمول، ومنهم من يُرَجِّح الآخر لسبقه في التركيب. وكذلك هنا؛ إذ لفظ (التسبيح) مفهوم قرآني يجمع الصوت الحسن مع التعبد، فهو أسبق إلى الفطرة، وأعظم في التصوير، في حين أنّ لفظ الموسيقى لا يرتقي إلى هذه الدلالة الازدواجية، غير أنّه لفظ تعبيدي صناعي، فكان أدل على الصناعة من الأول الدال على الفطرة.

## ٢. وظائف الكائنات ومقاصدها الوجودية:

يضع النورسي الكون في صورة منصة، ويرصد فيها الأحداث والوقائع التي تُمثّلها الكائنات في صورة مشاهد متجددة، إذا أُسدل ستار الفناء على واحد منها كشف ستار الوجود على تالٍ له يبدأ من حيث ينتهي الأول. فالله يفني مجموعة من المخلوقات، لكنّه "يرسل أمثالهم، فينسجون على منوالهم، فيسبحون مولاهم، يتدثّون في أعمالهم من حيث انتهت أعمال أسلافهم." <sup>٤٨</sup> وذلك في سيولة وسيورة دائمة ما هي إلا ماريّا

<sup>٤٨</sup> النورسي، سعيد. المشوي العربي، ضمن: كليات رسائل النور، القاهرة: سوزلر للنشر، ط ٤، ٢٠٠٥م، ص ٤٥٠.

ومظاهر متبدلة للأسماء، والصفات، والأفعال الإلهية، وتحلياتها الوجودية<sup>٤٩</sup>. يقول كاشفاً عن هذه الحقيقة: "وهذه الموجودات الجلييلة مظاهر سيالة، ومرايا جِوالة، لتجدد تجليات أنوار إيجاده سبحانه بتبدل التعيّنات الاعتبارية:

أولاً: مع استحفاظ المعاني الجميلة والهويات المثالية.

وثانياً: مع إنتاج الحقائق الغيبية والنسوج اللوحية.

وثالثاً: مع نشر الثمرات الأخروية والمناظر السرمدية.

ورابعاً: مع إعلان التسيّحات الربانية، وإظهار المقتضيات الأسمائية.

وخامساً: لظهور الشؤون السبحانية والمشاهد العلمية.<sup>٥٠</sup>

هذه هي وظائف الكائنات ومقاصدها التكوينية في الوجود، لا يخرج عن إطارها أيُّ كائن كما صرّح في قوله: "كل كائن حي له غايات وحكم مختلفة في هذه الطبقات الخمس.<sup>٥١</sup> فما حقيقة هذه الوظائف؟

### أ. أسرار الوظائف في مآلات الوجود والعدم:

تُقَرُّ هذه الوظائف والمقاصد الكلية الوجودية بأن حركة الكون كلها دائرة بين الوجود والعدم المضاعفين: وجود دنيوي وأخروي، وفناء دنيوي وأخروي. بناءً على ذلك، ونظراً إلى تراؤف معاني هذه الوظائف وتقاؤب مقاصدها؛ يمكن احتزالها في ثلاث كليات تُمثّل حقيقة فلسفة الوجود والعدم في التصور الإسلامي:

الكلية الأولى: ترسيخ معاني الأشياء في قوة (الحافظة) البشرية بعد فنائها وكتابتها في عالم المثال.

الكلية الثانية: الدلالة على وجود عالم المثال وثمراته الأخروية، أو فلسفة الجزاء

الإلهي.

<sup>٤٩</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص ٣٧٥.

<sup>٥٠</sup> المرجع السابق، ص ٣٧٨.

<sup>٥١</sup> المرجع السابق، ص ٣٧٨.

الكلية الثالثة: إظهار تجليات الجلال والجمال المُتجدِّدة بتجدُّد أسمائها وصفاتها الحاملة لها.

تقتضي الكلية الأولى وجود قوى إدراكية في الإنسان خلقها الله فيه، وركَّبها في ماهيته لالتقاط المعاني والأحاسيس والصور، من تعاقب الأجسام وأعراضها في الكون. وهذه القوى الباطنية كما هي عند العلماء: القوة الباصرة التي تبصر الموجودات، والقوة الخيالية التي تبقى على صور تلك الموجودات بعد رؤيتها، فهي تدرك الصور، ثم القوة الخيالية المدركة للمعاني، ثم القوة المفكرة، وهي التي تُركَّب المعاني على الصور وتحفظها.<sup>٥٢</sup>

وهذه الأخيرة أفضلها وأعظمها؛ لأنها تُرتَّب الحكم على الوصف المستفاد من الصورة، وتُقرَّره، وتحفظه، فتسمى حافظه. ولهذا لجأ إليها النورسي، وجعلها موازية في وظيفتها للوح المحفوظ، قائلاً: "القوى الحافظة (الذاكرة) التي هي نماذج الألواح المحفوظة."<sup>٥٣</sup> فهذه الحافظة (أو الذاكرة) خلقت في الإنسان لالتقاط ما لا ينتهي من المعلومات والمعاني والدلالات التي تبثها الكائنات في الكون، ثم يستثمرها الإنسان لخدمة مصالحه، وتشيد صرح عمرانه وفق العلاقات التي تربط بين هذه الكائنات والقوانين المنظمة لها.

أمَّا الكلية الثانية فتدل على أنَّ الكائنات جميلةا وقييحهها، خيرها وشرها، إمَّا هي ابتلاءات وجودية تذيب الإنسان طعم الحلاوة والمرارة الدال بالقوة على وجود الجنة والنار في الآخرة. فهي علامات عليها، و"معمل ينتج المحاصيل التي تناسب سوق الآخرة."<sup>٥٤</sup> فالكائنات توجد لتأدية وظيفة البيان المقاصدي الوجودي للإنسان، فتُظهر له جزءاً مادياً فانياً مسلولاً مما هو موجود باقي في الآخرة؛ ترغيباً له في خيرها، وترهيباً من شرها المُطلَقين المتمدنين السرمديين. فهي إذن علامات على المناظر السرمدية الغيبية التي يجب تجديدها متعة الإيمان بها، والتشوق إليها. ويتجدد في المُشاهد أيضاً لذة تعاقب مناظر

<sup>٥٢</sup> الغزالي، أبو حامد. تهافت الفلاسفة، قدَّم له وضبط نصه: أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١،

٢٠٠٠م، ص١٧٥-١٧٦.

<sup>٥٣</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص٣٧٩.

<sup>٥٤</sup> المرجع السابق، ص٣٨٠.

السينما ومشاهدها. وهو تصوير لطالما هُرع إليه النورسي للتنسيق بين ما هو غيبي وتقريبه للذوق وما هو مادي محسوس. و"الحاصل: أنه لو أُمعِن النظر في الكائنات؛ صُودف فيها عنصران أساسان وعرقان ممتدان، إذا تحصَّلاً وتآبداً صاراً جنَّةً وجهنم.<sup>٥٥</sup> وبهذا، يريد النورسي إضفاء صبغة العقلانية على وجود الجنة والنار في الآخرة بصورة منطقية تُقرب حقيقتهما إلى المخالف في العقيدة. ومن هنا كانت حتمية الموت؛ لأنَّ "بالموت تتمخض الخَلقة، وتتميز الكائنات، فتمتاز جهنم بعشيرتها ومادتها، وتتجلى الجنة جامعةً لطائفها، مُستَمَدَّةً من عناصرها.<sup>٥٦</sup>

وأما الكلية الثالثة فحقيقتها المضمرة وجوب الإيمان بصفات الله تعالى المتنوعة في التحليلات المتحددة في الذات. والنورسي بحنكته جعل هذا المشهد هو القاسم المشترك بين الإنسانية جمعاء؛ لأنَّ تبدُّل الكائنات وتغيُّرها وتجدُّدها وخَلْفُ بعضها من بعض وإمداد بعضها بعضاً إنما هو منظر مُشاهد محسوس طافٍ على ساحة الأرض، لا ينكره ذو عقل، ولا يرتاب فيه صاحب فكر. وهل هذا كله إلا تحليلات لتلك الأسماء والصفات؛ إذ "مثلاً: يقتضي اسم الرحيم الإشفاق، ويقتضي اسم الرزاق إعطاء الرزق، ويستلزم اسم اللطيف التلطيف... وهكذا؛ فكل اسم من الأسماء الإلهية له مقتضى. وكل ذي حياة يُبيِّن مقتضى تلك الأسماء، بحياته ووجوده، وهو في الوقت نفسه يُسبِّح الله الحكيم بعدد أجهزته.<sup>٥٧</sup>

إذن، بمقتضى هذا التلازم بين الأسماء وتحليلاتها، وبمقتضى القانون المشترك بين النوع الإنساني في الإدراك؛ يلزم الإقرار بعظمة الربوبية والألوهية المتصفة بهذه الصفات الجلالية والجمالية التي لا يخرج عنها بار ولا فاجر؛ ما يدفع الجاحد بالشرعية إلى عدم الجحود بالحكمة، فهما متلازمتان، ومسلك تلازمهما الأسماء وتحليلاتها في الخلق.

لهذا كان حقاً الإلحاد في هذه الأسماء والصفات هو أصل الكفر ومادته عند المحققين؛<sup>٥٨</sup> لأنَّ الكافر، وإنَّ وجد عقلاً لرفض عبادة تشريعية بدعوى ما، فلا يمكنه

<sup>٥٥</sup> النورسي، إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص ١٩٢.

<sup>٥٦</sup> المرجع السابق، ص ١٩٣.

<sup>٥٧</sup> المرجع السابق، ص ٣٨١.

<sup>٥٨</sup> ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج ١٨، ص ٣٢١.

نكران عبادة المخلوقات المتراحمة لخدمته من حيث هو إنسان، فيصير أحسن مخلوق لإجهازه على تلك الأجهزة المعنوية التي تربطه بالكائنات؛ من: قلب، وعقل، وفكر، وحافضة، وشعور... بعدما جعلت له الأفضلية الإلهية بها؛ استخلاقاً، واستعماراً. وتلك نتيجة النورسي المفحمة للإنسان عامةً بعد كل هذه المقدمات والتمهيدات المنطقية الفطرية؛ إذ يقول: "لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ خِلاصَةَ جَامِعَةٍ لِهَذَا الْكَوْنِ، فَإِنَّ قَلْبَهُ بِمِثَابَةِ خَرِيْطَةِ مَعْنَوِيَةٍ لِآلَافِ الْعَوَالِمِ؛ إِذْ كَمَا أَنَّ دِمَاغَ الْإِنْسَانِ -الشبيه بمجمع مركزي للبت والاستقبال السلبي والاسلبي- هو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون، ويكشف عنها ويبيتها؛ فإنَّ قلب الإنسان كذلك هو محور لما في الكون من حقائق لا تُحُدُّ، ومظهر لها، بل هو نواتها."<sup>٥٩</sup>

فهذه الكليات الثلاث متلازمة في أداء الوظائف والغايات والحكم. غير أنَّ محركها الذي يُسلِّط الشعاع على هذه الوظائف فيها هو الوجود والعدم؛ وذلك أنَّ وجودها الدنيوي مؤقت يدل إمَّا بالمطابقة والدلالة الظاهرة على وجود آخر مقابل للأول معنوي سرمدى، بما تبته في حافضة الإنسان من أسرار ومعانٍ أبدية تصحبه في الآخرة بعد موته، ويجازى بها وعليها هناك. وإمَّا باللزوم الضمني على أنَّ الإنسان يكابد إمَّا فراقاً أبدية إذا تخندق في زاوية الجحود والإلحاد والكفر، وإمَّا فراقاً مؤقتة تستحيل بعد موته وجوداً سرمدياً مُفَعِّماً باللذة والنعيم المُطْلَقَيْنِ. ويرى في ذلك الفراق المؤقت تسريحاً من الوظيفة الاستخلاقية التي استعمر في الأرض من أجلها، فيغدو مع تلك الكائنات على نسق تعبدى واحد، وأخوة كونية شاملة. فالأمر كله دائر بين معاني الوجود والعدم.

وما نصبت الكائنات إلا لتعرفه بالمسلكين معاً، وتدله على النوعين كليهما، لكنَّه يُفَضَّلُ عليها باختياره وإرادته، وتلك حقيقة استخلافه وعمارته في الأرض، ومناط سيادته عليها. وقد لخص بديع الزمان حقيقة الفناء والوجود في شعور المؤمن والكافر معاً. أمَّا المؤمن "فيرى أنَّ المملكة كلها تُعْلَنُ -في حفل التسريح العام- هتافات الفرخ بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء. ويسمع فيهم أيضاً أصوات

<sup>٥٩</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص ٥٧١.

الجوقة الموسيقية وهي تُقدّم ألحانها الحماسية مقترنةً بالتكبيرات العالية، والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز للذين يساقون إلى الخدمة والجنديّة. "٦٠" وأمّا الكافر "فيرى في الكائنات مأتماً عمومياً، ويرى موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعداء، لا يعرف بعضاً بعضاً، بل يعاديه، وترى جامداتها جنائز دهاشة، وترى حيواناتها وأناسيها أيتاماً باكين بضربات الزوال والفرق. "٦١" وإذا "أظلم سمع هذا الكافر بالكفر؛ صار أصم من تلك الأصوات اللذيذة، ولا يسمع من الكائنات إلا نياحات المأتم، ونغيات الموت، فلا يلقى في القلب إلا غمّ الثيمة - أي عدم الأحباب - ووحشة الغربة. "٦٢"

تلك هي قصة الفناء والوجود للكائنات والإنسان جميعاً، وهي النتيجة الحتمية الموضوعية نُصّب عقل كل إنسان ليتملّى مشاهدتها في الكون، عساه يؤوب إلى رشده من حيث هو إنسان مخلوق مقهور تحت سلطة مُبدّل الكائنات ومُجدّدها، فلا جرم كان هدف النورسي هو احتضان الإنسان الغربي بعقلنته قوانين التكليف التعبدي، وبيان جذورها المنطقية الفطرية، وإن كانت تفاصيلها غيبية.

### ب. دلالة القرآن عليها:

يُضمر سياق هذه الكليات المقاصدية والوظائف التكوينية عند النورسي سؤالاً يُنقّب عن حُجيتها في القرآن الكريم بوصفه كشّاف الحقائق، وفهرس الموجودات جميعها. ولهذا، يمكن للمعتبر أن يسأل: ما منزلة هذه الوظائف والمقاصد في كليات القرآن الكريم؟

لا يألو النورسي جهداً في التنسيق المنهجي بين حقيقة القرآن الكلية ومنزلة المخلوقات في فهرسه؛ فهو عنده "الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومُفسّر كتاب العالم، وكذا هو كشّاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض. "٦٣"

٦٠ النورسي، الكلمات، مرجع سابق، ص ١٠.

٦١ المرجع السابق، ص ٢٥٦.

٦٢ النورسي، إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص ٧٨.

٦٣ المرجع السابق، ص ٢٢.

وهذا التعريف نفسه هو كليات منضودة في نسق وظيفي يتجاوب مع وظائف تلك الكائنات، ويُبرز طبيعتها جلياً. وهذه الكليات مُستلّة من تعريفه:

- كلية التعريف بالكائنات في امتدادها قبل خلقها (الأزل)، وبعد خلقها (الأبد)؛ أي كونها كلماتٍ، ثم حقائقٍ وأجساماً.

- كلية التسبيح والتعبد بألسنتها التالية للآيات التكوينية؛ أي للأوامر الإلهية القاضية بتكوينها والامتنال لها.

- كلية الكشف عن معاني الأسماء والصفات وتجلياتها.

وأنت ترى أنّ هذه الكليات متساوقة مع تلك الوظائف والطبائع عموماً. والنورسي بهذا التعريف إنّما كان يروم نَظْم معاني النصوص القرآنية ودلالاتها ومقاصدها التكوينية الابتلائية والتشريعية معاً، مما يُرى مُتثاقلاً بين قصص القرآن وأحكامه وقضاياه عموماً؛ لأنَّ سرَّ القرآن في عرضه مناظر ومشاهد الكائنات بتدميرها، وتبديلها، وإيجادها، وإفنائها، وما يلزم عنها من حركات وأصوات وإيقاعات؛ لكل ذلك عنده قوانين كما سبق "مؤسّسة على سرِّ المناسبات بين الأشياء، والانعكاسات في نظام الكائنات." <sup>٦٤</sup> وهذه القوانين هي المقصود أصالةً من تلك المناظر والمشاهد التي تعرض لها، وتُعدُّ روابط بين كونها كلماتٍ وتجلياتٍ للأسماء وأقداراً وأفضيةً، وأشياءٍ وأجساماً وأجراماً. هذا في الطبيعة، أمّا الوظيفة فالدلالة على المقاصد الإلهية العلا في الكون؛ من: توحيد، وعدالة، وحشر، ونشر، وما يخص فلسفة الجزء من ثواب وعقاب. <sup>٦٥</sup> فهي دائرة بين مقاصد طبيعية لخدمة نفس الإنسان، ومقاصد تشريعية لجسّ نبض الروح فيه.

ولهذا، نجد القرآن الكريم يعرض حقيقة الماء مثلاً، وما يُنبئه من كائنات ومخلوقات بإذن الله، ويصف الأرض والسماء بعرض مشاهد تبدو متعكسة أحياناً، فتغدو لوحة تتشابه فيها المشاعر ترغيباً وترهيباً، وتختلط فيها حركات النجوم والكواكب، وتغيب الشمس في عتمة الليل، ويخلع الربيع أرديته الجميلة ثم يُكفّنها الشتاء بعباءته الدكناء،

<sup>٦٤</sup> المرجع السابق، ص ١٢٠.

<sup>٦٥</sup> المرجع السابق، ص ١٧٧.

وتقضي الكائنات نجبها، وتستمر الحياة بولادة كائنات جديدة، وتستمر الطبيعة تترنح بين هيئات وكيفيات وصور وأعراض.

هذه كلها وغيرها مشاهد يعرضها القرآن الكريم للتدبر، والتعريف بالخالق، وبيان تجليات كلماته التكوينية القاضية بتربية الأنواع والأجناس، بقوانين تبدو متعارضة ومتناقضة في المنطق البشري النسبي، بحيث يتداخل فيها الخير بالشر، وتمتاز فيها المصلحة مع المفسدة، لكنّها ليست سوى تجليات الجلال القاهر والجمال الباهر، وتلبّس أحدهما بالآخر. والمقصود من هذا العرض استثارة قلب الإنسان طبعاً. يقول رحمه الله: "والقلب كالنواة فهو المرآة الأنور لصانع المخلوقات (...). فالإنسان الأصغر في هذه الكائنات هو المدار الأظهر للنشر والمحشر في هذه الموجودات، والتخريب والتبديل والتحويل والتجديد لهذه الكائنات."<sup>٦٦</sup>

إذن، مشاهد القرآن في الكون مناظر وأصوات جميلة مُسَيِّجة بالجلال، تستثير في قلب الإنسان التسبيح كما تستثيره في سائر المخلوقات. ومن هنا، يمكن وصف آياته بما يشبه الترم والعزف والموسيقى في نظر النورسي؛ إذ يقول: "إنَّ الله ينادي بقرانه الكريم الذي هو موسيقاه الإلهية، ماثلاً الكون كله صوتاً صدّاحاً هادراً في قبة السماء، فانعطفت النغمات المقدسة لذلك النداء السامي مُتموِّجةً نحو أصداف رؤوس العلماء (...). وانعكست أصدويتها من ألسنتهم سيّالة، سيّارة، منوّعة، مختلفة، هزّت الدنيا بشدة موجاتها، فطَبَعَتْ بتجسّمها كتب الإسلام كلها، وصيّرتها كأثماً وترّاً من طُنْبُور، وشريط من آلة قانون، فأعلن كلُّ وترٍ نوعاً من ذلك الصدى السماوي الروحاني."<sup>٦٧</sup>

العلماء والمجتهدون في ذوق النورسي ليست عقولهم وقلوبهم سوى أجهزة رصد ميكروسكوبية لترسنة الجمال الموسيقي التي تبثه الآيات والسور في الكون، فتلتقط ما دقّ وخفي من الحكم والأسرار. وعلى قدر تجاوب القلب معها يتولّد الإبداع ويتطور في جميع الفنون والعلوم، عاكساً حقيقة التعبد والخضوع والامتثال.

<sup>٦٦</sup> النورسي، المشوي، مرجع سابق، ص ١٤٦.

<sup>٦٧</sup> النورسي، صيقل الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

وعلى هذا، وحب أن تكون موسيقى القرآن سرمدية ممتدة بأصواتها الجميلة التي تعكسها حركات الكائنات وأصواتها في الكون، حتى لو سكتت هاته الأصوات لم تسكت هي، وإنما تندفق هادرة كما تدفق كلماتها في العلم الإلهي غير متوقفة ولا ساكنة. قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩). يقول في ذلك: "لو سكن طنينُ البعوض، وهدأ دويُّ النحل فلا تأسوا، ولا تخزنوا، ولا تحمد أشواقكم أبدأً. فالموسيقى الإلهية العظيمة التي تجعل بنغماتها الكون في رقصٍ وانتشاءٍ، وتهز بأشجانها أسرار الحقائق؛ لم تسكن أبدأً، ولم تهدأ، بل تستمر قوية عالية هادرة."<sup>٦٨</sup>

هكذا صار يحكي القرآن الكريم في كثير من قصصه، فيعرضها لوحات فنية تُمثل نسق التعبد المشترك بين الإنسان والكائنات حين تنجلي حُجب الشهوات، وينتشل الإنسان نفسه من انغماسها المفرط في الاهتمامات الشخصية.

ففي مشهد الجبال والطير مثلاً، وتأويها مع داود عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِمَّا نَشَاءُ فَضَلًّا لِيَجِبَالَ أُوِّي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠). يقول سيد قطب: "والآية تصور من فضل الله على داود عليه السلام أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في تسايحه أن انزاحت الحُجب بينه وبين الكائنات، فاتصلت حقيقتها بحقيقته، في تسيح بارئها وبارئته، ورجعت معه الجبال والطير؛ إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع، وبين كائن من خلق الله وكائن، وترتد كلها إلى حقيقتها الواحدة."<sup>٦٩</sup>

على شاكلة هذا التصوير الفني وُضع نسق التسيح والذكر في الكائنات في سائر قصص القرآن المشابهة، لا نطيل بذكرها لضيق الموضوع. والمقصود أن القرآن حافل بالمشاهد المتلونة والمتباينة في الطبيعة والإنسان، التي ترسو سفينتها في نهاية المطاف على ضفة النسق التعبدي، القاضي بالتسيح والذكر والشكر للصانع، وبيان مقاصد الإنسان الوجودية؛ من: موت، وحشر، ونشر، وجنة، ونار.

<sup>٦٨</sup> النورسي، المشوي، مرجع سابق، ص ١٦٢.

<sup>٦٩</sup> قطب، سيد. في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ط ١٧، ١٤١٢هـ، ج ٥، ص ٢٨٩٦.

## رابعاً: المتقابلات مسرح الجمال التعبدي المُفَعَم بالتسييح

الكون هذا الفضاء الشاسع الواسع الممتد إنما هو مسرح ترعى فيه المتقابلات المتضادة والمتقابلة بكل ألوانها وأطيافها، وتعرض حقائقها إلى مشاهد متتابعة وتقلبات متتالية، ولكن في أستار من حُجب الحكمة والأسرار؛ وذلك "أنَّ الخالق جَلَّت قدرته مزج الأضداد في عالم الكون والفساد لحِكْم دقيقة، ووضع أسباباً ظاهريَّةً ووسائطاً؛ إظهاراً لعزته، فترتَّبَت سلسلة العلل والمعلولات.<sup>٧٠</sup> وذلك كله مبني على قوانين السبب والمُسبَّب لاستمرار المقاصد الطبيعية في الخلق؛ من: تغذية، وإنماء، وصحة، ومرض، ونشوء، وفناء... خضوعاً للأسطقسات (الأصول بلغة اليونان) المادية الأربعة، وهي: الماء والنار والهواء والتراب<sup>٧١</sup>، وما يترتب عليها من كيميَّات وهيئات، وهي: الرطوبة، والحرارة، والبرودة، واليبوسة. وتلك حقيقة الكون والفساد، فهي ظاهرة مادية طبيعية محضة، غير أنَّ تدبير الإرادة الإلهية تأبى الخضوع إلا للأسطقسات معنوية أخرى مرتبطة بالقدرة التي أوجدت أصل الكون بغير هذه الوسائط، وهي: "الحكمة، والعدالة، والعناية، والرحمة، التي هي عناصر قوية شاملة كالنار، والهواء والماء والتراب.<sup>٧٢</sup> يقول في ذلك: "فالوجود في الدنيا يصدر من يد القدرة بلا واسطة، وأمَّا البقاء المحفوف بالتحليل والتكوين والتصرف والتحوُّل في عالم الكون والفساد؛ فتداخل بينه العلل، وتوسُّط الأسباب، للحكمة المذكورة سابقاً.<sup>٧٣</sup>

في خضم هذا التقابل تنفتق لوامع الإعجاز في حركة الكون؛ إذ كثيراً ما تقف الأسباب الطبيعية عاجزة عن التأثير، فيُفَوِّض أمر النتيجة إلى تلك القوانين الغيبية الأربعة. ومنها ينشأ التفويض والتوحيد الكوني، وتنطلق أهازيج التسييح والتمجيد. ولولا ظهور هذه القوانين في صورة معجزات ظاهرة أو خفية لبقى الإنسان محشور الأنف في أوساخ

<sup>٧٠</sup> النورسي، إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص ٢١٩.

<sup>٧١</sup> ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد. تلخيص ما بعد الطبيعة، تحقيق: عثمان أمين، القاهرة: دار مصطفى بابي الحلبي، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٣٢.

<sup>٧٢</sup> النورسي، الكلمات، مرجع سابق، ص ٩١.

<sup>٧٣</sup> النورسي، إشارات الإعجاز، مرجع سابق، ص ٢٢١.

الطبيعة المادية، التي لم تُخلَق قوانينها المادية إلا لخدمة نظام محدود معين في النوع، هو الشهوة والغريزة. وكذلك صار الإنسان المعاصر محشور الأنف فيها للأسف.

ومن هنا، فإنَّ البقاء والفناء في الكائنات قد يُلاحظ فيه نوعٌ ألمٍ، وترتَّبُ نغياتٍ وصيحاتٍ وتأوهاتٍ، غير أنَّه ألمٌ مُدترٌّ بشفقة الرحمة من جهة، وبيان كوني ممزوج بتحذيرات وإنذارات للإنسان المُكلَّف (المقصود الأول) من جهة أخرى. يقول: "فلا تتألم لهم حتى يكون التألم شفقة ممدوحة، بل تألم لنفسك المفروضة في موقعهم، الفانية بطريق القياس فيهم."<sup>٧٤</sup>

من ثم، فقد سيقت أعمال كثير من الطيور والحشرات وغيرها، لرصد وظائف الكائنات، وإظهار الانسجام بينها. "فمثلاً؛ العندليب المشهور بالعشق للورد... ليست نعماته الحزينة تألمت شكايات حيوانية، كلاً بل هي تشكُّرات عطايا رحمانية. وقس عليه النحل، والفحل، والعنكبوت، والنمل، وبلا بل الهوام، وغيرها."<sup>٧٥</sup>

صوت العندليب ونحيبه يوحي بمعاناته وتألمه مثل صوت عواصف الرياح وجلجلة رعود السماء وغيرها... كلها توحى بالخوف والألم، لكنَّها -في الوقت نفسه- تُسبِّح وتُمجِّد مَنْ بثَّ فيها هذه الأصوات. وكذلك "الطويرات التي تتسارع في الهواء حين يقودها النسيم إلى البقلة التي لا تناسبهن لمخالفة الجنس، ولا تناسب الشجيرة لمخالفة النوع؛ أوكاراً كالأرحام لطيفة حصينة من أحسن الأوكار، فيها أرزاق نظيفة لذيدة لتلك الطويرات."<sup>٧٦</sup>

والمقصود أنَّ تقابل النوع والجنس وتضادهما في الطبيعة هو عين التراحم والتواصل الكوني الرفيع في الحكمة الربانية. وحيثما نرى ذبولاً في الزهرة، وإيداناً منها بالرحيل عن عالم الكون والفساد؛ فمعناه الولوج إلى سلك البقاء في عالم أخروي عن طريق ما يتولَّد عنها من دلالات ومعانٍ وماهيات وهويات للأشياء في ذاكرة الإنسان، وفي اللوح

<sup>٧٤</sup> المرجع السابق، ص ٤٥٠-٤٥١.

<sup>٧٥</sup> النورسي، المشوي، مرجع سابق، ص ٤٧٨.

<sup>٧٦</sup> المرجع السابق، ص ٣٩٥.

المحفوظ<sup>٧٧</sup>، بحيث إذا رحل الإنسان ألفاها هناك منتصبه تعرفه بعمله تجاهها. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

إنَّ ألم الزوال والرحيل للكائنات ومشاهدها الجمالية الطبيعية إنما هو بسبب فراق اللذة والمتعة التي رحلت برحيل حاملها وجوهره. بيد أنَّ لزينة الإيمان وجماله يداً بيضاء تكشف الغطاء عن حقيقة المحسوسات ومرجعها، فيبدو جلال الربوبية يغطي خشبة الكون بالأمل والبقاء السرمديين المفعمين بنور الإيمان؛ إنَّه جمال آخر من نوع آخر لا يُرى بعين البصر، لكنَّه يُحسُّ بالبصيرة، إنَّه جمال الجلال المُفضي إلى فرح خالد ممتد، وليس هو فرحاً تراجيدياً موسيقياً تستمتع به الآلهة في مشهدها الكوميدي الدرامي كما تُصوِّره الأجناس الأدبية الغربية التي تقف من التصورات المسيحية للفن والحياة، في حين يعيش الإنسان في عالم وهمي خيالي، يحتسي المعاناة، مُستغرقاً في وهمه، يُفكِّر "وهو جالس بهدوء في قاربه وسط الأمواج."<sup>٧٨</sup>

ليس الأمر هكذا في الفلسفة الإسلامية القرآنية؛ لأنَّ الله الواحد مُنزه في عليائه عن كل لذة أو منفعة. والإنسان يكابد المشقة والألم في الدنيا والقلب مسرور بالله؛ لأنَّه تكليف إلهي مُفعم بأشعة الأنس بأسماء الله وصفاته وأفعاله.

فالرؤية السارّة هي الإيمان بالبقاء الحقيقي المُفعم بالجمال والجلال، لا وهم موسيقي يفرضه الخيال كما لو كان أداة تحذير تحمل الإنسان من معاناة حقيقية إلى لذة صورية، فلا يلبث حتى يجد نفسه في عالم ملؤه نفس ما حاول الفرار منه.

إنَّ رحلة الحروب والمقاساة والفراقات الأبدية التي تُبديها حركة الكون والكائنات إنما هي ابتلاء ينتهي بالموت. والموت هنا بداية تسريح الوظيفة الابتلائية، ودخول المتعة الجمالية الأبدية الحقيقية التي زرعها الإيمان في سرِّ الشعور، لا الخيال والوهم. هذه هي الفكرة العامة التي تحاول الكائنات جاهدة الاستدلال عليها، بتناسقها، وتعاونها، وأداء وظائفها التي جُبلت عليها، وأمرت بها. فيبقى التحدي عند الإنسان أن يبصر ذلك ليعثر

<sup>٧٧</sup> النورسي، المكتوبات، مرجع سابق، ص ٣٧٩.

<sup>٧٨</sup> نيتشه، فريديريك. مولد التراجيديا، ترجمة: ساهر حسن عبيد، اللاذقية: دار الحوار، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ١٠٠.

على القياس، ويقود نفسه والكائنات جميعاً إلى وحدة الخدمة وأصل الوظيفة؛ إنَّه أصل النسق التعبدي.

## خامساً: من تداعيات النظرية وامتداداتها

### ١. إنشاء فلسفة جمالية تعليمية راقية:

لظالما اهتم النورسي بالنشء في رسائله، وأوصى بهم على قدر اهتمامه بإنشاء فلسفة جمالية، جذورها في الغيب والإيمان، وفروعها في مناهج العلوم الكونية والمادية. لقد كانت عناية النورسي بمفاهيم الجمال الموسيقي تهدف إلى قرح زناد الإحساسية عند متعلّمي اللغة العربية والقرآن الكريم ومعلّميها، والارتقاء بأذواقهم إلى مستوى تلمّس المعاني القرآنية وتحليلاتها في العلوم والطبيعة، والوقوف على أسرار هاته العلوم عن طريق هذه الكليات نفسها.

فهو لا يحبس العلوم الكونية والطبيعية في قماقم مقلّبة متوقعة على ذاتها، وإنَّما يُوظّفها لخدمة لغة القرآن، ويُورّي عن جذورها في كليات الدين وقواعد الشريعة؛ عساه يجذب أنظار الآخر لكونوزها المخفية، ودفائنها المحتجبة. فما أصعبها من وظيفة! وما أخفاه من مورد! حين يعمد العالم إلى العلوم، مُبِيناً منبعها من كلياتها الإنسانية والكونية، ومُعيداً تنزيلها بما يوافق مكانن التجديد في عصره، كما يعمد الفنان إلى مختلف الأصباغ، ويمزجها في (باليت)، ثم يأخذ بفرشاته منها ما يصلح لفكرة لوحته.

واليوم، ومع تطور الآلة، والركوع إلى الأشياء، أصبح كلُّ من الفن والجمال يُنتج ويُصدّر للمتعلّمين في الأكاديميات والمعاهد وللآخر عموماً؛ لا بوصفه فكرة إنسانية وموضوعاً قيمياً، وإنَّما بوصفه وسيلةً لإخضاعه، والسيطرة عليه، وتطويعه ليغدو متناسقاً مع إمبراطورية الغرب العسكرية، والتمجيد الوثني الغريزي للأنا، كما سُطرت في أركان (الليبيدو)، ولو سُيِّحت بسياج الفن، وسُمِّيت باسم الجمال.

ما زالت الحرب والفانتازيا المبنية على ثنائية إخضاع الضعيف للقوي هي طابع السينما والدراما في الغرب مثلاً... فأفلامه العملاقة هي التي نجحت فيها فكرة تصوير

العنف وحبكة المشاهد وإخضاعها للثلاثي المقدس: اللون الواحد (الدم)، والموسيقى الواحدة (الرعب، والخوف)، واللذة الواحدة (الجنس، وإشباع الغريزة)، تماماً كما عاشتها اليونان في الأوديسا والإلياذة... وغيرهما من الأساطير التي ما زالت منذ عصر النهضة الأوروبية تنفث غبارها في المخيال الغربي، فيعيد إنتاجها في صورة أكثر تشوّهاً وبشاعةً. وفكرة السلام أو الأمن كفكرة الجمال؛ "لا ترى السلام إلا حيثما يكون مؤيداً بالسلاح."<sup>٧٩</sup> والفكرتان متآخيتان على كل حال.

## ٢. استشارة الإنسانية في الإنسان:

يُعدُّ اهتمام النورسي بالمقاصد الجمالية الموسيقية اهتماماً بالكليات الأخلاقية المشتركة التي جاء بها الدين ابتداءً، حتى يمكن صياغة معادلتها في مقولة: "في البدء كانت الكليات"... هكذا على سبيل الترجيح القطعي، مثل: الحياة، والعدالة، والعبادة، والتوحيد، والجمال... وذلك لاستدعاء جميع الأجناس الكونية إلى بساط العبادة الكوني، والامتثال لسلطة الربوبية التي قضت بتكوينهم وخلقهم من حيث هم مخلوقات، وبوصف الإنسان نوعاً منها، داخلاً في زمرتها.

إنَّه منهج القرآن نفسه حين يشحن قوالب خطابه الكامل بمعاني المشترك الكلي بوصفها مقدمة أولى، ثم يتجاوزها - بعد رصد حقيقتها الإنسانية العامة - إلى كليات إيمانية خاصة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقًا لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء: ٧٠). فهاتان الآيتان هما تذكير مُفعم بالمرّ الإلهي والتكريم المشترك الممتد على مرّ الأزمان، يكتسح كل عقل أُنّي حلّ وارتحل؛ قصد مراجعة الذات، وخلخلة النفس العصية التي لطالما لفتت الإنسان الآدمي في سراويل من الشهوات حالت دون أُوْبِهِ وتذكُّره.

<sup>٧٩</sup> ابن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، دمشق-بيروت: دار الفكر، دار الفكر المعاصر، ط٤، ١٩٨٤م، ص١٢٧.

ويشبه أن يكون تلاشي (أو قلّة) هذا الصدى الفطري في بواطن الخلق في العصر الحاضر هو الإلف والعادة. كلما انكفأ الإنسان على ذاته وطأطأ رأسه مُنغمساً في دركات شهواته ولذاته تقلصت مساحته بصره وإبصاره، وتبلد إحساسه، وغلظ طبعه، وراحت الكائنات -بالنسبة إليه- أجساماً متساوقةً مع شهوته، مبهمّةً تحت غريزته، قريبةً منه كقرب إصبعه من عينه، يكاد لا يبصره ولا يعيه. كذلك حقيقة المخلوقات إذا نظر إليها بمنظار النفس.

من هنا، كان التدبر في هذه الكائنات صقلاً للطبع، وتنظيفاً لمرآة النفس؛ عساها تعود إلى طبيعتها الفطرية الأولى، فتتكشّف حقيقة الكائنات أمامها، وتصير حركة بسيطة في الكون لها تأثيرها الوجداني ثم العمراني، مثلما برأها الله على ذلك؛ إذ لا عبث في الكون، لا في صغير، ولا في كبير. ولطالما أكّد النورسي -مُقرّراً- أن فعل الذرة لا يتقاعس منزلةً عن فعل المجرة. فأفعالهما وحركتهما سيان بالنسبة إلى حواس الشعور الإنساني إذا طُهرت بماء الوحي، وصُقلت بثلج الماوراء.

كذلك كانت نظرة عملاق الأناضول إلى العالم، قاصداً تأسيس نخضة تركية تسع شريط الأناضول، وتمتد لتغزو العالم بسلام وجمال يداعبان أركانها بلطف وسلاسة.

وقد استجابت له الأقدار على نحوٍ عجيب لافت؛ إذ باتت مراكز البحوث النورية في تركيا وغيرها محضناً، ليس فقط للصاحب في العقيدة، وإنما للمخالف من أصحاب الكتب السماوية السابقة، الشيء الذي لم يُر في تجارب كثير من مُنظري الإصلاح الحضاري.

#### خاتمة:

يوجد في الكون منظومتان مركزيتان مُمثّلتان جوهر الكائنات (الروح والمادة)، وتدفعانها إلى إفراز ألوان متجانسة ومتباينة من المقاصد التوحيدية والوظائف التسيحية، تُعدّ مادة النسق التعبدي. وقد كان الإنسان مدعواً منذ القدم إلى اكتشاف هذا النسق، واحترامه،

ومراعاته في تفاعله الذهني والوجداني مع الكون؛ ما مكّنه من اكتشاف المشترك الكلي بين أفراد النوعية بوصفه إنساناً، وفي ارتباطه بسائر الأنواع بوصفه مخلوقاً كونياً.

والمشترك الكلي الكوني المُتمثّل في التوحيد والعبادة عند النورسي هو الذي دفع المصنوعات إلى تسييح صانعها، ورسم لوحات جمالية، مادتها محاكاة الأسماء والصفات وتمثّل الكلمات الإلهية، وصورتها الحركة والصوت والإيقاع. فينطلق الكون في رحلة موسيقيّة مهيبية، لا يُجسّسها إلا مَنْ صفا ذوقه، ورزق طبعه، ولطّف إحساسه. ولم تعد الكائنات بالنسبة إليه أشياءً وأصناماً، وإنما مخلوقات مُفعمّة بالروح، مُكتنزة بالعبادة، مجبولة على الامتثال، خاضعة للأمر والتنفيذ، توضح للإنسان طريق التكليف، وتُعينه على رصد مسالك التعبد، فيرتقي من واقع النفس إلى فضاء الروح. حتى إذا تزوّد من معين كلمات الله وأسمائه هناك؛ رجع مرة أخرى لإصلاح واقعه، وتضميد جراحاته، ونسج لوحات الفن والجمال، انسجماً مع حركة التسييح الكوني العام، وتماشياً مع محركها المزدوج: المادة والنور، أو النفس والروح، وليس أحدهما فقط؛ إنّها جمالية النسق التعبدي، أو موسيقى الكائنات.

كذلك كان محور هذه الدراسة بوصفها مدخلاً آخر من مداخل قراءة التراث؛ قراءة يتداخل فيها الوحي والكون، ويتآخى العقل مع الفن، فتغدو في نهاية المطاف محطة لتناسل قضايا وإشكالات قد يكون أهمها ما يأتي:

- نظرية الجمال الكوني، وهي دراسة في كليات الجمال الكوني، ومظاهره، وعناصره كما هي في رسائل النورسي.

- البحث عن النسق الجمالي في العلوم الشرعية عن طريق علم التصوف خاصةً، بيان القنوات الحاملة لنظرية الجمال التعبدي في مباحثه.

- البحث عن النسق المقاصدي الذي ينظم قواعد العلوم، وينضد كلياتها في عقد جامع، يسهل رصد معالم الوحدة المنهجية التوحيدية فيها، والعثور على الأتمودج المعرفي المشترك بينها.